اسم المادة الدراسية : الأدب العباسي (الشعر).

اسم المادة باللغة الانكليزية : Abbasid Literature of poetry

(المحاضرة التاسعة)

عنوان المحاضرة : أبو العتاهية .

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة

محاضرة ٩

أبو العتاهية

ولد أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان فى «عين التّمر» بالقرب من الأنبار سنة ١٣٠ للهجرة، وكان أبوه نبطيّا من موالى بنى عنزة، أما أمه فكانت من موالى بنى زهرة القرشيين. وكان أبوه يشتغل بالحجامة ويظهر أن سبل العيش ضاقت به فى بلدته، فانتقل منها إلى الكوفة بأسرته، ومعه ابناه الصغيران: زيد وأبو العتاهية، ولا يكاد يشبّ ثانيهما، حتى نراه ينتظم فى سلك المخنثين ممن كانوا يخضبون أيديهم ويتزينون ويلبسون ملابس النساء حاملين لزوامل تميزهم . ولعل فى ذلك ما يدل على ما كان يحسه هذا الغلام من ضياع، إذ نشأ فى أسرة فقيرة مغمورا، لا يعتزّ بأى شئ فى دنياه من جاه أو حتى ثروة ضيقة، وكان دميم الوجه قبيح المنظر ، نزعت به نفسه إلى اللهو والمجون، فماذا يصنع؟ إنه لم يجد أمامه إلا أن ينخرط فى جماعة المخنّثين، وبذلك كتب عليه أن يكون سيّئ السيرة فى مطالع حياته. وكان أخوه زيد قد احترف عمل الخزف وبيع الجرار والفخار، فحاول أن ينقذه مما تردّى فيه، وما زال به حتى أشركه معه فى حرفته، وكان نبع الشعر قد أخذ يتدفّق على لسانه، فكان يأتيه الأحداث والمتأدبون فينشدهم أشعاره ويكتبونها على ما تكسّر من الخزف وما يشترونه من الجرار .

واشتهر أمر أبى العتاهية فى الكوفة وأخذ يختلط ببيئات المجّان من الشعراء أمثال مطيع بن إياس ووالبة، كما أخذ يختلف إلى حلقات العلماء والمتكلمين فى مساجد الكوفة، مما أتاح له

إتقان العربية والوقوف على مذاهب أصحاب المقالات، وهو فى أثناء ذلك يكثر من نظم رقائق الغزل ومن الغدوّ والرواح إلى نوادى القيان والمغنين، ولم تلبث الصلة أن توثقت بينه وبين مغن ناشئ من النّبط دوّت شهرته فيما بعد هو إبراهيم الموصلى، وتعاقدا على أن ينزلا بغداد ، لعل بضاعتهما تروج فيها، وفتحت الأبواب لإبراهيم بينما سدّت فى وجه أبى العتاهية، فصمّم على العودة إلى الكوفة، وعرّج فى طريقه على الحيرة، ورأى بها نائحة تسمى سعدى كانت مولاة لبنى معز بن زائدة، وكانت ذات حسن وجمال، فشغفت قلبه حبّا، وأخذ ينظم فيها شعره، غير أنها أعرضت عنه، وتصدّى له مولاها عبد الله ابن معن، ونهاه أن يعرض لها، فعمد إلى هجائه هجاء مقذعا فأنزل به عقابا صارما إذ ضربه مائة سوط، وتوسط بينهما مواليه من عنزة، وكفّ أبو العتاهية لسانه .

ويمّم الكوفة غير أن مقامه لم يطل بها، فإن إبراهيم الموصلى صديقه أقبلت عليه الدنيا حين ولى الخلافة المهدى (١٥٨ – ١٦٩ هـ) وقرّبه مع من قرّب من المغنين، فأرسل إليه أن يلحق به، ليقدمه للخليفة، وطار إليه أبو العتاهية، وأعجب الخليفة بمديحه، وأخذ يغدق عليه جوائزه (٢)، وأوسع له فى مجالسه حتى أصبح أثيرا عنده مقدّما له على كثير من الشعراء، وحتى نراه يقبل شفاعته فى أحد وزرائه وقد أمر بسجنه .

وتمر الأيام بأبى العتاهية باسمة، غير أن سحابة لا تلبث أن تنعقد فى سمائها، فقد تعلّق بجارية من جوارى زوجة المهدى رائطة بنت السفاح، وهى عتبة، وكانت تزدريه كما ازدرته سعدى من قبل، ومضى لا يكفّ عن غزله بها ولا يرعوى، فعرّفت مولاتها خبره وأثارتها عليه، فحدّلت المهدى بشأنه، فغضب لتعرضه لحرمه وجوارى قصره، وأمر بضربه مائة سوط وسجنه، ولم يلبث يزيد بن منصور الحميرى أن شفع له لدى المهدى، فعفا عنه وردّ إليه حريته، ويقول الرواة إنه لم يكن يحبها حبّا صادقا إنما كان يريد الشهرة فى الأوساط الأدبية بذكرها وأنه امتحن فى حبها وأثبت الامتحان كذبه وأنه إنما كان يتكلف هذا الحب تكلفا ، وقد ظل يذكرها ويتغنّى باسمها طويلا، ولعل ذلك هو الذى جعل المهدى يقول له إنك إنسان معتّه، فاستوى له بذلك لقبه «أبو العتاهية» وغلب على اسمه

وكانت بغداد لعهد المهدى قد جذبت إليها شعراء كثيرين من الكوفة والبصرة قصد المعاش والتكسب، وخرج إليها فيمن خرجوا جماعة المجان من أمثال مطيع ابن إياس ووالبة وأبى نواس، واختلط بهم أبو العتاهية وأخذ يعبّ معهم من كئوس الخمر واللهو فى دور القيان والمجانة بالكرخ

من أمثال دار القراطيسى وفى الأديرة من مثل دير أشمونى . ويفسد الأمر بينه وبين والبة، فيصليه نارا حامية من هجائه بمثل قوله يعرّض باعتزائه المزيف للعرب، إذ كان ينسب نفسه فى بنى أسد :

النسب:

أوالب أنت فى العرب ...كمثل الشّيص فى الرّطب

هلمّ إلى الموالى الصّيـ ...ـد فى سعة وفى رحب

فأنت بنا لعمر اللـ ...ـه أشبه منك بالعرب

ويتوفّى المهدى فيخلفه الهادى (١٦٩ – ١٧٠ هـ) ويلزمه أبو العتاهية ينشده مدائحه فى كل مناسبة وعطاياه تهطل عليه كالغيث المنهمر، ولا يلبث أن يعتلى الرشيد أريكة الخلافة (١٧٠ – ١٩٣ هـ) وكان منقطعا إليه ملازما له أيام أبيه المهدى، فاتصل ما انقطع فى مدة الهادى القصيرة، وأصبح لا يفارقه فى سفر ولا حضر «وكان يجرى عليه فى كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والصلات السنية» وكثيرا ما كانت تبلغ فى المرة الواحدة مائة ألف درهم .

وظل يعيش اللهو والقصف، حتى كانت سنة ١٨٠ للهجرة، وهى السنة التى نزل فيها الرشيد الرّقّة فإذا هو يتحول من حياة اللهو والمجون إلى حياة الزهد والتقشف وليس الصوف. ويحاول الرشيد أن يعود به ثانية إلى حياته القديمة وإلى ما كان يصنع له من رقائق الغزل، فيمتنع ويضيق الرشيد بامتناعه، ويأمر بضربه وحبسه فى دار موسّعا عليه حتى يصدع لأمره، ويسترسل أبو العتاهية فى استعطافه بمثل قوله :

إنما أنت رحمة وسلامه ...زادك الله غبطة وكرامه

لو توجّعت لى فروّحت عنى ...روّح الله عنك يوم القيامة

ويرق له الرشيد ويأمر بإطلاقه، ويأخذ منذ هذا التاريخ فى الإكثار من شعر الزهد وذكر الموت والفناء والثواب والعقاب والدعوة إلى مكارم الأخلاق.

اتهم انه مانوي : وفى ذلك يقول أبو العتاهية

عقيدة مانوية:

لكل شئ معدن وجوهر ...وأوسط وأصغر وأكبر

وكلّ شئ لاحق بجوهره ...أصغره متصل بأكبره

الخير والشرّ هما أزواج ...لذا نتاج ولذا نتاج

لكل إنسان طبيعتان ...خير وشرّ وهما ضدّان

والخير والشر إذا ما عدّا ...بينهما بون بعيد جدّا

وكان المانوية يضيفون إلى ذلك إيمانا بأن للعالم إلهين: إله النور وإله الظلمة، وبذلك فارقوا أصحاب الديانات السماوية، ويظهر أن أبا العتاهية لم يكن يجرى فى العقيدة إلى آخر الشوط، إذ كان يدين بالتوحيد على نحو ما يمثل ذلك قوله :

فيا عجبا كيف يعصى الإلـ ...ـه أم كيف يجحده الجاحد

وفى كل شئ له آية ...تدلّ على أنه واحد

وكأنه حاول أن يمزج بين عقيدة الإسلام وعقيدة المانوية.

خير ما يمثّل ذلك مدحته اللامية للمهدى، وفيها يقول :

المديح :

أتته الخلافة منقادة ...إليه تجرّر أذيالها

ولم تك تصلح إلا له ...ولم يك يصلح إلا لها

ولورامها أحد غيره ...لزلزلت الأرض زلزالها

ولو لم تطعه بنات القلوب ...لما قبل الله أعمالها

وإن الخليفة من بغض لا ...إليه ليبغض من قالها

والقصيدة من بحر المتقارب الخفيف، وألفاظها تسيل نعومة وعذوبة. وأكبر خليفة عنى بمديحه هرون الرشيد فقد كان يمدحه فى سلمه وحربه وفى كل المناسبات.

وقد نظم استعطافات كثيرة للرشيد حين حبسه، وهى لا تمتاز بالأسلوب السهل اليسير فحسب، بل تمتاز أيضا بشدة التضرع، حتى ليبادر الرشيد بالعفو عنه كما أسلفنا لمثل قوله :

أنا اليوم لى، والحمد لله، أشهر ...يروح علىّ الهمّ منكم ويبكر

تذكّر أمين الله حقّى وحرمتى ...وما كنت تولينى لعلك تذكر

وهو لا يكثر من الهجاء غير أن ما خلّفه فيه يدل على إحكامه لسهامه، حتى لنرى والبة بن الحباب يفرّ على وجهه منه إلى الكوفة، ومن أوائل هجائه أشعاره فى عبد الله بن معن مولى محبوبته الأولى سعدى النائحة، وقد صّوره فى بعض هذه الأشعار صورة ندى لها وجهه طويلا، إذ أخلاه من العقل والشجاعة بل أيضا من الرجولة، حتى ليقول على لسانه :

أنا فتاة الحىّ من وائل ...فى الشّرف الشامخ والنّبل

ما فى بنى شيبان أهل الحجى ...جارية واحدة مثلى

قد نقّطت فى وجهها نقطة ...مخافة العين من الكحل

إن زرتموها قال حجّابها ...نحن عن الزّوّار فى شغل

وكان يعرف كيف يرمى مهجويه يمثل هذه النبال المصمية، فمن ذلك أن الأمور فسدت بينه وبين سلم الخاسر، فما هو إلا أن قال فيه:

تعالى الله يا سلم بن عمرو ...أذنّ الحرص أعناق الرجال

الرثاء:

وبين أيدينا له مراث مختلفة، لعل أحرّها مراثيه فى صديقه على بن ثابت الزنديق، وقد أنشدنا منها أطرافا فى الفصل السابق، وقد ظل يبكيه ويندبه طويلا ندبا كله لوعة وحرقة وأسى عميق من مثل قوله :

فتى لم يملّ النّدى ساعة ...على عسره كان أو يسره

أتته المنيّة مغتالة ...رويدا تخلّل من ستره

فخلّى القصور لمن شادها ...وحلّ من القبر فى قعره

وأصبح يهدى إلى منزل ...عميق تؤنّق فى حفره

أشدّ الجماعة وجدا به ...أشدّ الجماعة فى طمره

خمريات :

وليس له خمريات كثيرة وكأنما عصفت بخمرياته يد الزمن فيما عصفت به من شعره، ونراه يقدم لإحدى مدائحه للهادى بنعت مرقص للخمر وندمانها وساقيها ومن يلمّ بهم من الجوارى الحسان، يقول وقد طافت به بعض ذكرياته الماجنة فى الكوفة:

لهفى على الزّمن القصير ...بين الخورنق والسّدير

إذ نحن فى غرف الجنا ...ن نعوم فى بحر السّرور

فى فتية ملكوا عنا ...ن الدهر أمثال الصقور

غزل :

كأنها من حسنها درّة ...أخرجها اليمّ إلى السّاحل

كأن فى فيها وفى طرفها ...سواحرا أقبلن من بابل

لم يبق منى حبّها ما خلا ...حشاشة فى بدن ناحل

يا من رأى قبلى قتيلا بكى ...من شدّة الوجد على القاتل

زهد:

وينتقل أبو العتاهية من مرحلة غزله وخمره إلى مرحلة جديدة تعدّ انقلابا فى حياته، فقد تحول من حياة اللهو إلى حياة الزهد، وظل نحو ثلاثين عاما يتغنى بالكأس الخالدة كأس الموت الدائرة على الخلق، فالكل مصيره إلى الفناء والكل وشيك الزوال، والكل سيصبح ترابا فى تراب يقول:

بين عينى كلّ حىّ ...علم الموت يلوح

نح على نفسك يا مس ...كين إن كنت تنوح

وقبلك داوى الطبيب المريض ...فعاش المريض ومات الطبيب

وهو يضيف إلى حديثه الطويل عن الموت والقبور حديثا عن البعث والنشور، ولكنه لا يسترسل فى ذكر عذاب الجحيم ونعيم الجنان، كما أشرنا إلى ذلك آنفا، بل يلم إلماما بالبعث والحساب على شاكلة قوله :

فلو أنا إذا متنا تركنا ...لكان الموت غاية كلّ حىّ

ولكنا إذا متنا بعثنا ...ونسأل بعده عن كل شىّ

وطبيعى أن يطبع أسلوبه فى الزهد بطوابع الأسلوب الوعظى من التكرار وكثرة النداء والاستفهام والأمر. ونراه يشيع فى زهدياته أدعية وابتهالات لربه من مثل قوله :

إلهى لا تعذّبنى فإنّى ...مقرّ بالذى قد كان منّى

ومالى حيلة إلا رجائى ...لعفوك إن عفوت وحسن ظنّى

شكوى :

يرفع لبعض الخلفاء شكوى مريرة من غلاء الأسعار، يقول فى تضاعيفها :

من مبلغ عنى الإما ...م نصائحا متتاليه

أنى أرى الأسعار أسـ ...عار الرعيّة غاليه

وأرى المكاسب نزرة ...وأرى الضرورة فاشيه

من يرتجى للناس غيـ ...رك للعيون الباكيه

من مصبيات جوّع ...تمسى وتصبح طاويه

من يرتجى لدفاع كر ...ب ملمّة هى ماهينه

من للبطون الجائعا ...ت وللجسوم العاريه

ألقيت أخبارا إلي ...ك من الرعية شافيه

المصادر والمراجع :

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- الادب العربي في العصر العباسي : د. ناظم رشيد ، دار الكتب الوطنية – العراق ، ١٩٩٠.
- تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ، نقله الى العربية : عبد الحليم النجار ، دار المعارف – الاسكندرية ، (د.ت.)
- تاريخ الأدب العربي : د.عمر فروخ ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١.
- ديوان الشاعر المتنبي .
- ديوان الشاعر ابي تمام .
- ديوان الشاعر البحتري .
- ديوان الشاعر ابي نواس .
- ديوان الشاعر العباس بن الاحنف .
- ديوان الشاعر الشريف الرضي .
- ديوان الشاعر بشار بن برد .
- ديوان الشاعر ابن الرومي .